الدراسة والتفقه » ، بل هي يهودية جديدة عفوية ، تؤمن بالروح ، وتعادي الفكر ، وهو يرحب بظهور الصهيونية ، لانها — في تصوره — هي نتاج هذا الضرب من اليهودية : « ان اليهودية الجهولة (المعادية للفكر) قد اعطتنا هرتزل واتباعه ... وجابوتنسكي ورجال جماعة البيلو ، ومعظم الحالوتسيم (الرواد) ، وهذا النوع من اليهودية ، وليست اليهودية التقليدية ، هي التي ستبني الوطن القومي » . ان اليهودية الجديدة لا علاقة لها بالتراث اللاهوتي اليهودي ، او بكتب المفسرين والشراح والمعلقين التي لا حصر لها ولا عدد ، بل ان هذه اليهودية الجديدة لا علاقة لها بالقديم من الناحية الوجدانية . يقول تشرنحوفسكي : « ان العالم يتكسون من المنتصرين والمنهزمين ... والمنهزمون اكثر عددا من المنتصرين ... وأنا حامل لواء انشودة النصر ، واريد ان اشق طريقي في العالم كأحد المنتصرين . وحظي كيهودي ان أكون شاعر الهزيمة ... ولكني حتى كيهودي سأظل أحمل أنشودة الغزو » . انه يرفض تاريخ الاستشهاد والخنوع والهزيمة ، بمعنى انه يرفض التاريخ اليهودي كله ، والشخصية اليهودية برمتها ، وينادي بيهودية جديدة لا وجود لها .

ولكن تشرنحوفسكي ، على طريقة الصهاينة ، يعود الى التاريخ اليهودي القديم ، لا ليدرسه ككل ، بل ليركز على بعض النقط الناصعة فيه التي تساند وجهة نظره . فهو مثلا يعود الى فجر التاريخ اليهودي ليكتشف ان الشعب اليهودي كان يعيش على صلة وثيقة بالطبيعة ، وهذا ما يقوله في السوناتا التاسعة ، من مجموعة السوناتات المعنونة « الى الشمس » :

ان اجنحة الليل البدائية تنشر الظلمة فوق العالم ،
ويلتحم سر الصحراء بالظلمة ،
ثم تخرج القبائل المجتمعة من خيامها فوق كل تل ،
لتنحني لاله الشمس مرتجفة ، في مرائها وضرائها .

واذا كان اليهود قد حل بهم الشتات ، وتركوا تلك الحياة الطبيعية الاولى ، الا ان طقوسهم — حسبما يرى الشاعر — تدل على قوة الوشائج التي تربطهم بالطبيعة :

ورغم أن الامة غيرت سماواتها ، سماواتها الزرقاء ،
ورغم أن نجومها اظلمت ، ورغم أنها تنزح تحت نير سماء الغربة ،
ولا تزال تتقدم طورا للامام وطورا للخلف ،
الا انها تخرج مرة كل شهر في ليل الاسرار
لتبارك القمر ، تماما كما كانت تباركه
حينما كانت فوق قمة جبل الجبال ، حيث يقطن الاله الخالد .

ويبدو أن تشرنحوفسكي وجد يهوديته المنشودة في العصور الضبابية الغامضة ، التي سبقت غزو القبائل اليهودية أرض كنعان ، فانشودته — كما يدعي هو نفسه — تستمد حياتها من الايام القديمة ، والدم الذي يجري في عروقه هو دم غزاة ارض كنعان ، الذين تركوا لاولاد اولادهم رؤية لوطن يهودي يمتد من نهر الفرات الى الجزيرة العربية ، وفي قصيدة « اني أسمع ايقاعا » يؤكد الشاعر أن أسلافه جيل من الرعاة غزا وفتح أرض كنعان لشعب لا أرض له ، وقد سمى الشاعر هذه القصيدة « وعد بلفور الذي ظهر قبل وعد بلفور » ، وهي تسمية طريفة ولا شك ، تعطينا مفتاحا لفهم غيبيات تشرنحوفسكي العلمانية ، فهو يؤمن ببعض الاساطير اليهودية القديمة مثل الشعب المختار والعودة الى أرض الميعاد والرب الذي يقود شعبه الى هذه الارض ، ولكنه يحول كل هذه الاساطير الى برنامج سياسي « قومي » يأخذه بمنتهى الجدية ، وبينمازعم كاتبو وعد بلفور انهم أخذوا بعين الاعتبار الحقائق التاريخية والسياسية مثل وجود شعب « غريب » في أرض الميعاد (ولذا فقد صاغوا تلك الوثيقة السياسية في لغة